(مجالس الوعظ والعلم في بغداد من خلال رحلة ابن جبير الاندلسي(ت٦١٤هـ/١٢١٧م))

م.د بشائر هادي حسن

جامعة ديالى/كلية التربية للعلوم الانسانية/ قسم التاريخ

الايميل bashair.hs.hum@uodiyala.edu.iq

University of diyala

the councils of preaching and science in Baghdad)
(through the journey of ibn jubair and Andalusia(614

Dr bashaer hadi hassan

councils preaching_Keyword : ibn jubair

مجالس الوعظ والعلم في بغداد من خلال رحلة ابن جبير الاندلسي(ت٦١٤هـ/١٢١٧م)

م.د بشائر هادي حسن

الخلاصة

لم يكن ادب الرحلات في التراث الاسلامي مجرد انطباعات سريعة يسجلها الرحالة ، بل محاولات للاقتراب اكثر من الجوانب العامة للشعوب ، ووصف دقيق لمعالم البلدان وهو ما جعلها مصدرا تاريخيا مهما للعصور اللاحقة ، لاسيما بعدما دمر المغول بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، أي بعد ست وسبعون عاما من زيارة ابن جبير لها ، فلقد زار بغداد ١٣ يوما فقط فكان كتابه مدونة تاريخية رسمت للجميع صورا من المعالم التي زال اثرها ، فعند زيارته استرعى انتباهه مجالس الوعظ التي كانت تقام فيها ، كما اهتم بتصوير مظاهر الحياة الدينية وتحدث عن المساجد والمزارات وحلقات التعليم والوعظ التي كان يحضر مجالسها وينقل لنا صورا دقيقة لها، كما شاهد مجالس الوعاظ في بغداد وحضرها ووصفها .

Abstract

Travel literature in the islamic heritage was not just quick impression recorded by travelers ، but rather attempts to get closer to the general aspects of peoples ، and an accurate description of the features of countries ، which made it an important historical source for subsequent eras ، especially after the Mongols destroyed Baghdad in the year 656 ah that is 76 years after ibn al khattabs visit . great for her ، be visited Baghdad for only 13 days ، so his book was a historical blog that drew pictures forveveryone of the monuments whose traces had disappeared

الكلمة المفتاح : ابن جبير ـ مجالس الوعظ

Keyword : ibn jubair _ councils preaching

الوعظ لغة واصطلاحا:

الوعظ باللغة العربية هو النصح والتذكير بالعواقب، يقال وعظته وعظا وعظة فأتعظ أي قبل الموعظة، والوعظ والموعظة والعظة سواء(١).

والوعظ ايضا هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب وهو ايضا التخويف، والواعظ هو الناصح،والجمع وعاظ(٢).

كان النبي محمد(ص) خير الواعظين، قال الصحابي العرباض بن سارية:(وعظنا رسول الله موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون)(٣) ، كما وردت في القرآن الكريم آيات حثت المسلمين على سماع الوعظ لأهميته على سلوك الافراد كقوله عز وجل((وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين))(٤) ، وقوله تعالى((ولو انهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم))(٥) ، وقوله تعالى ((يا ايها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم))(٦).

أهمية كتاب الرحلة لابن جبير:

تعد رحلة ابن جبير من اشهر الرحلات في الادب العربي من حيث مادتها والسمات الادبية التي تمثلت فيها، وقد اهتم ابن جبير في رحلته بتصوير مظاهر الحياة الدينية في البلدان التي زارها وتحدث عن المساجد والمزارات، ومجالس الوعظ وحلقات التعليم وكان يحضر مجالسها وينقل صورا دقيقة لها، فعندما زار بغداد استرعى انتباهه مجالس الوعظ التي كانت تقام فيها .

ابن جبير يزور بغداد:

استقبلت بغداد رحالة اندلسيا مر بها في طريق عودته من الحج، لم يكن هذا الزائر مجرد عابر سبيل بل كان كاتبا خط قلمه كثيرا من الكتب التي ضمنها تجاربه في الخياة في حله وترحاله، انه الرحالة محمد بن احمد بن جبير الكناني الاندلسي(٧)، الذي ولد في مدينة بلنسية عام ٥٤٠هـ وترعرع فيها وبرزت مواهبه في علوم الدين والحساب والشعر والنثر(٨). عند دخوله ارض العراق قادما من الحجاز زار مدينتي الكوفة والحلة وعددا من القرى التي صادفها حتى وصل بغداد في عام ٥٨٠هـ ، وقد استهل ابن جبير مدونته عن بغداد بوصفها

بالمدينة العتيقة التي ذهب اكثر رسمها حين رأى بغداد في زمان افولها في نهاية الخلافة العباسية اذ تختلف عما كانت عليه ايام حكم العباسيين الاوائل(٩).

اثنى ابن جبير على فقهاء بغداد ومحدثيهم ووعاظهم، وحكى عن حضوره بعض مجالسهم التي تميزوا فيها بطريقة الوعظ والتذكير ومداومة التنبيه والتبصير، ولفتت نضره ايضا اساليب الوعظ المؤثرة وتوظيف شعر النسيب فيها(١٠) ، كما ابدى اجابه بأصوات قراء القرآن في الجوامع، وكانت بعض هذه المجالس تعقد في ساحة قصور الخليفة الناصر لدين الله (١١).

مجالس علم ووعظ:

قال الرحالة ابن جبير في وصف وعاظ اهل بغداد ما نصه: استغفر الله الا فقهائهم المحدثين،ووعاظهم المذكرين، لا جرم ان لهم في طريقة الوعظ والتذكير ومداومة التنبيه والتبصير، والمثابرة على الانذار المخوف والتحذير، مقامات تستنزل لهم من رحمة الله تعالى ما يحط كثيرا من اوزارهم، فلا يكاد يخلو يوم من ايام جمعاتهم من واعظ يتكلم فيه ، فالموقف فيهم لا يزال في مجلس ذكر ايامه كلها، لهم في ذلك طريقة مباركة ملتزمة(١٢) ، فأول من شاهدنا مجلسه منهم:

١. الشيخ الامام رضي الدين القزويني(١٣)، رئيس الشافعية وفقيه المدرسة النظامية والمشار اليه بالتقديم في العلوم الاصولية(١٤) ، حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة اثر صلاة العصر من يوم الجمعة، فصعد المنبر اخذ القراء امامه في القراءة على كراسي موضوعة، واتوا بتلاحين معجبة ثم اندفع الشيخ الامام المذكور فخطب خطبة سكون ووقار وتصرف في افانين من العلوم من تفسير كتاب الله تعالى ، وايراد حديث رسوله(ص) والتكلم عن معانيه وحان المساء فنزل وافترق الجمع فكان مجلسه مجلس علم ووعظ ، وقورا هينا لينا ظهرت فيه البركة والسكينة، لاسيما آخر مجلسه فأنه سرت حميا وعظه الى النفوس حتى اطارتها خشوعا ، وفجرتها دموعا وبادر التائبون اليه سقوطا على يده، فكم مفصل من مفاصل التائبين طبق بالموعظة، والله تعالى يجازي كل ذي مقام عن مقامه(١٥) ، وشهدنا له فيها مجلسا ثانيا اثر صلاة العصر من يوم الجمعة الثاني عشر من شهر صفر ، وحضر ذلك اليوم مجلسه سيد علماء

الخراسانية، ورئيس الائمة الشافعية ودخل المدرسة النظامية بهز عظيم تشوقت له النفوس، فأخذ الامام المتقدم الذكرفي وعظه مسرورا بحضوره، متجملا به فأتى بأفانين من العلوم على حسب مجلسه المتقدم الذكر(١٦) ، ورئيس العلماء المذكور هو صدر الدين الخجندي(١٧)، المشتهر بالمآثر والمكارم ، ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه الامام الاوحد

٢. جمال الدين ابي الفضائل بن علي الجوزي (١٨)، بأزاء داره على الشط بالجانب الشرقي، وهو يجلس به كل يوم سبت فشاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد، وفي جوف الفرا كل الصيد، آية الزمان وقرة عين الايمان، رئيس الحنبلية والمخصوص في العلوم بالرتب العلية، امام الجماعة المشهود له في البلاغة والبراعة ، ومالك ازمة الكلام في النظم والنثر، ومن ابهر آياته انه يصعد المنبر ويبتدىء القراء بالقرآن وعددهم نيف على العشرين قارئا، فنتزع الاثنتان منهم او الثلاثة آية من القراءة يتلونها، فأذا فرغوا تلت طائفة اخرى على عددهم آية ثانية ولا يزالون يتناوبون ايات من سور مختلفات الى ان يتكاملوا قراءة، وقد اتوا بآيات متشابهات لا يكاد المتقد الخاطر يحصلها مبتدرا، وانتظم اوائل الايات المقروءات في اثناء خطبته فقرأ واتى بها على نسق القراءة لها، لا مقدما ولا مؤخرا، ثم اكمل الخطبة على قافية آخر آية منها(١٩). ويكمل ابن جبير حديثه عن هذا المجلس قائلا: فلو ان ابدع من في مجلسه تكلف تسمية ما قرأ القراء آية آية على الترتيب لعجز عن ذلك ن فكيف بمن ينتظمها مرتجلا ويورد الخطبة الغراء بها عجلا، ((افسحر هذا ام انتم لا تبصرون))(٢٠)، ((ان هذا لهو الفضل المبين))(٢١)، فحدث ولا حرج عن البحر وهيهات ليس الخبر عنه كالخبر(٢٢).

ثم انه اتى بعد ان فرغ من خطبته برقائق من الوعظ وايات من الذكر، طارت لها القلوب اشتياقا، الى ان علا الضجيج واعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، فشاهدنا هولا يملأ النفوس ندامة، وفي اثناء مجلسه ذلك يبتدرون المسائل فيجاوب اسرع من طرفة عين وربما كان اكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل(٢٣) ، ثم شاهدنا مجلسا ثانيا له بكرة يوم الخميس الحادي عشر

لصفر بباب بدر في ساحة قصور الخليفة، وهذا الموضع المذكور هو من حرم الخليفة وخص بالوصول اليه والتكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته ومن حضر من الحرم، ويفتح الباب للعامة فيدخلون الى ذلك الموضع ، وجلوسه بهذا الموضع كل يوم خميس ، فبكرنا لمشاهدته وقعدنا الى ان وصل هذا الحبر المتكلم فصعد المنبر، وارخى طيلسانه عن رأسه تواضعا لحرمة المكان، وقد تسطر القراء أمامه على كراسي موضوعة فابتدروا القراءة على الترتيب وشوقوا ما شاءوا، وأطربوا ما ارادوا فلما فرغوا من القراءة(٢٤) ،وقد احصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات، صدع بخطبته الزهراء واتى بأوائل الآيات في اثنائها منتظمات، ومشى الخطبة على فقرة اخر اية منها في الترتيب الى ان اكملها(٢٥) ، وكانت الآية ((الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ان الله لذو فضل على الناس))(٢٦) .

فكان يومه في ذلك اعجب من امسه، ثم اخذ في الثناء على الخليفة زالدعاء له ولوالدته، ثم سلك سبيله ففي الوعظ كل ذلك بديهة لا روية، ويصل كلامه في ذلك بالايات المقروءات على النسق مرة اخرى(٢٧)، ثم في اثناء مجلسه ينشد بأشعار من النسيب مبرحة بالتشويق، بديعة الترقيق تشعل القلوب وجدا، وكان آخر ما انشده من ذلك وقد أخذ المجلس مأخذه من الاحترام واصابت المقاتل سهام ذلك الكلام:

أين فؤادي اصابه الوجد وأين قلبي فما صحا بعد

يا سعد زدني جوى بذكرهم بالله قل لي فديت يا سعد(٢٨)

وفي اول مجلسه انشد قصيدا غير القبس عراقي النفس، في الخليفة اول:

في شغل من الغرام شاغل من هابه البرق بسفح عاقل

يقول فيه عند ذكر الخليفة:

يا كلمات الله كوني عوذة من العيون للامام الكامل

ففرغ من انشاده وقد هز المجلس طربا ، فسبحان من يخص بالكمال من يشاء من عباده لا اله غيره(٢٩).

وشاهدنا بعد ذلك مجالس لسواه من وعاظ بغداد ممن نستغرب شأنه، بالاضافة الى ما عهدناه من متكلمي الغرب، وكنا قد شاهدنا بمكة والمدينة شرفها الله مجالس من قد ذكرناه

في هذا التقييد فصغرت بالاضافة لمجلس هذا الرجل الفذ، في نفوسنا قدرا ولم نستطب لها ذكرا(٣٠) ، وحضرنا له مجلسا ثالثا يوم السبت الثالث عشر لصفر، بالموضع المذكور بأزاء داره على الشط الشرقي، فشاهدنا من امره عجبا حيث صعد بوعظه انفاس الحاضرين سحبا ، واسال من ادمعهم وابلا سكبا، ثم جعل يردد في آخر مجلسه ابياتا من النسيب الى ان غلبته الرقة فوثب من اعلى منبره والها مكتئبا ، وغادر الكل متندما على نفسه منتحبا، لهفان ينادي يا حسرتا وا حربا، وكل منهم بعد من سكرته ما صحا، فسبحان من خلقه عبرة لاولي الالباب، وجعله لتوبة عباده اقوى الاسباب لا اله سواه(٣١) .

يتبين لنا مما سبق ان وعاظ بغداد في تلك الفترة تميزوا بأن الواعظ الذي يجب ان يكون على معرفة بالفقه والعلوم والاداب وان يتمتع بأسلوب بسيط لا يخلو من البلاغة لمخاطبة القلوب والتأثير على العقول، مما يجعل الواعظ اثيرا لدى سامعيه ، ولم تطل اقامة ابن جبير في بغداد اكثر من ثلاثة عشر يوما، استطاع فيها نقل كل هذه التفاصيل الدقيقة بعين الناقد البصير كأنه كان يحمل دواته ومحبرته كي يدون كل ما تقع عينه عليه، ضمنه في رحلته التي عرفت بأسم(تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الاسفار) ثم ذاع صيته بأسم رحلة ابن جبير.

الهوامش

(١) الزبيدي ، محمد بن محمد مرتضى الحسيني(ت١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، بيروت، ج٥،ص٢٦٦.

(٢) الفراهيدي، الخليل بن احمد عبد الرحمن البصري(ت١٧٠هـ)، العين، تحقيق:ابراهيم السامرائي ومهيدي المخزومي،(بغداد:دار الحرية للطباعة، ١٤٠١هـ ـ١٩٨١م)،ج٢،ص٢٢٨.

(٣) ابو داود، سلمان بن الاشعث بن اسحاق السجستاني(ت ٢٧٥هـ)، السنن، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد،(بيروت: دار احياء التراث العربي ، ١٤١٤هـ ـ١٩٩٤م) ، ج٤، ص٢٠١.

(٤) سورة هود ، الآية ١٢٠.

(٥) سورة النساء ، الآية ٦٦.

(٦) سورة النساء ، الآية ٦٦ .

(٧) ينظر ترجمته : الذهبي، شمس الدين ابو عبد اللع محمد بن احمد بن قايماز(ت ٧٤٨هـ) ، سير اعلام النبلاء ، (القاهرة: دار الحديث ، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م) ، ج١٦، ص٨١ ، ابن تغرى بردى ، ابو المحاسن يوسف بن عبد الله الظاهري الحنفي(ت٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، (مصر: دار الكتب) ، ج٦، ص٢٢١.

(٨) Aljazeera. net ، رحالة اندلسي في العراق ، ٢٠٢١م .

(٩) Aljazeera. net ، رحالة اندلسي في العراق ، ٢٠٢١م .

(١٠) شعر النسيب : النسيب هو رقيق الشعر في النساء، ينسب نسبا ونسيبا بهن في الشعر وتغزل ، وهذا الشعر أنسب من هذا أي ارق نسيبا . ينظر: ابن منظور ، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الانصاري (ت٧١١هـ) ، لسان العرب ، ط٣ (بيروت : دار صادر ، ١٤١٤هـ) ، ج١ ، ص٧٥٦ .

(١١) Aljazeera . net ، رحالة اندلسي في العراق ، ٢٠٢١م .

(١٢) ابن جبير ، محمد بن احمد بن جبير الكناني الاندلسي(ت٦١٤هـ) ، تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الاسفار(رحلة ابن جبير) ، (بيروت : دار مكتبة الهلال) ، ص١٧٤.

(١٣) رضي الدين القزويني : هو احمد بن اسماعيل بن سوسف ولد سنة ٥١١هـ ، من مشايخه الفقيه محمد بن يحيى وسمع بقزوين وقدم بغداد فوعظ بها ، توفى سنة ٥٩٠هـ . ينظر : الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك (ت ٧٦٤هـ) ، الوافي بالوفيات ، تحقيق: احمد الارناؤوط وتركي مصطفى ،(بيروت : دار احياء التراث ، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م) ، ج ،ص٢٥٣ ، السبكي ، تاج الدين عبد الوهاب ين تقي الدين (ت٧٧١هـ) ، طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو ، ط٢ (دار هجر للطباعة ، ١٤١٣هـ) ، ج٦ ، ص٧ .

(١٤) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص١٧٤ .

(١٥) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص١٧٥ .

(١٦) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ١٧٥ .

(١٧) صدر الدين الخجندي : هو محمد بن عبد اللطيف بن محمد المهلبي الازدي الاصفهاني الشافعي، صدر العراق في زمانه وكان السلاطين يصدرون عن رأيه ، وزد بغداد وتولى تدريس النظامية ووعظ بها ، وكان اشبه بالوزراء منه بالعلماء، توفى سنة ٥٥٢هـ. ينظر : ابن العماد الحنبلي ، عبد الحي بن احمد بن محمد العكري (ت١٠٨٩هـ) ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، تحقيق: محمود الارناؤوط، ط١ (دمشق : دار ابن كثير ، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م) ، ج٥ ، ص٣٥٤ ، الزركلي ، خير الدين بن محمود ، الاعلام ، ط١٣(دار العلم للملايين ، ٢٠٠٢م) ، ج٦ ، ص٢١٧ .

(١٨) ابن الجوزي : هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي البغدادي الفقيه الحنبلي الواعظ، علامة عصره في التاريخ والحديث كثير التصانيف ، المتوفى سنة ٥٩٧هـ . ينظر: ابن خلكان ، شمس الدين احمد بن محمد البرمكي الاربلي (ت٦٨١هـ) ، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق : احسان عباس (بيروت : دار صادر) ، ج٣ ، ص١٤٠ .

(١٩) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص١٧٦ .

(٢٠) سورة الطور ، الاية ١٥ .

(٢١) سورة النمل ، الاية ١٦ .

(٢٢) ابن جبير رحلة ابن جبير ، ص١٧٦ .

(٢٣) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص١٧٧ .

(٢٤) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص١٧٧ .

(٢٥) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ،ص١٧٨ .

(٢٦) سورة غافر ، الاية ٦١ .
(٢٧) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص١٧٨ .
(٢٨) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص١٧٨ .
(٢٩) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص١٧٩ .
(٣٠) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص١٧٩.
(٣١) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص١٧٩ .

المصادر والمراجع :

القرآن الكريم

١. ابن تغري بردي ، ابو المحاسن يوسف بن عبد الله الظاهري الحنفي (ت٨٧٤هـ) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، (مصر: دار الكتب) ، ج٦ .
٢. ابن جبير ، محمد بن احمد بن جبير الكناني الاندلسي (ت٦١٤هـ) ، تذكرة لالاخبار عن اتفاقات الاسفار (رحلة ابن جبير) ، (بيروت : دار مكتبة الهلال) .
٣. ابن خلكان ، شمس الدين احمد بن محمد البرمكي الاربلي (ت٦٨١هـ) ، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق : احسان عباس (بيروت : دار صادر) ، ج٣ .
٤. ابو داودسلمان بن الاشعث بن اسحاق السجستاني (ت٢٧٥هـ) ، السنن ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد (بيروت : دار احياء التراث العربي ، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م) ، ج٤ .
٥. الذهبي ، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد بن قايماز (ت٧٤٨هـ) ، سير اعلام النبلاء ، (القاهرة : دار الحديث ، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م) ، ج١ .
٦. الزبيدي ، محمد بن محمد مرتضى الحسيني (ت١٢٠٥) ، تاج العروس من جواهر القاموس ، بيروت ، ج ٥ .
٧. الزركلي ، خير الدين بن محمود ، الاعلام ، ط١٣ (دار العلم للملايين ، ٢٠٠٢م) ، ج ٦ .
٨. السبكي ، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (ت٧٧١هـ) ، طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق : محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو (دار هجر للطباعة ، ١٤١٣هـ) ، ج٦ .
٩. الصفدي ، صلاح الدين خليل بن ايبك (ت٧٦٤هـ) ، الوافي بالوفيات ، تحقيق: احمد الارناؤوط وتركي مصطفى (بيروت : دار احياء التراث ، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م) ، ج٦ .
١٠. ابن العماد الحنبلي ، عبد الحي بن احمد بن محمد العكري (ت ١٠٨٩هـ) ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، تحقيق : محمود الارناؤوط ، ط١ (دمشق : دار ابن كثير ، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م) ، ج٥ .
١١. الفراهيدي ، الخليل بن احمد عبد الرحمن البصري (ت ١٧٠هـ) ، العين ، تحقيق : ابراهيم السامرائي ومهدي المخزومي (بغداد : دار الحرية للطباعة ، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م) ، ج٢ .
١٢. ابن منظور ، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الانصاري (ت٧١١هـ) ، لسان العرب ، ط٣ (بيروت : دار صادر ، ١٤١٤هـ) ، ج١ .
١٣. Aljazeera . net ، رحالة اندلسي في العراق ، ٢٠٢١ م .